

قراءة في كتاب

الإبداع ومستقبلات التعليم

أمين دراوشة



الإبداع ومستقبلات التعليم

العنوان

أنا كرافت

المؤلف

وليد السويركي

المترجم

مؤسسة عبد المحسن القطان

الناشر

الطبعة الأولى، 2013

سنة النشر

274 من القطع المتوسط

عدد الصفحات

تمهيد

«لا شك أن الغد سيستمر في إدهاشتنا، وتقع الدهشة عندما نكتشف أن ما يحدث غداً ليس مزيداً مما كنا عليه، ولا عملية تطور تدريجية له، إنما هو ذلك النوع من التحول الذي يخترق خططنا وتوقعاتنا العقلانية الأكثر صلابة». (الكتاب، ص 25)

اتصفت السنوات الأولى من القرن الحالي بالتغير السريع، الذي غطى كل مجالات الحياة في الاقتصاد وفي البنى الاجتماعية والبيئية. وكان لانتشار التكنولوجيا الرقمية التي نفذت إلى خبراتنا الحياتية، أن جذبت إليها أعداداً هائلة من الأطفال والشباب والبالغين، بوصفهم مستهلكين ومنتجين.

وعلى التعليم أن ينمي، في كل منا، مفهوماً شاملاً للإبداع. وأن أساليب التعليم يجب أن تتم بطريقة إبداعية لتحقيق هذا الهدف أيضاً.

وينظر الكتاب إلى الطفولة بوصفها قادرة و متمكنة ومؤثرة في الفعل والإنتاج، لذلك تدرك الكاتبة الخصائص الجوهرية للطفولة والشباب الآخذين في التغيير.

يقوم الكتاب في محاوره الرئيسية على أربعة مفاهيم: التعددية، المرح، الإمكانات، المشاركة. ويناقشها في ضوء تجلياتها الرقمية من قبل الأطفال والشباب في علاقتهم بالتكنولوجيا والتحول في الملتيميديا.

والمفاهيم السابقة تفتح لنا طرقاً يمكن أن تبلور من خلالها عملية تعليمية ملائمة، تؤكد على أهمية الإبداع في وسائلها وأهدافها.

ويناقش الكتاب أيضاً أهمية التعاون في خلق مستقبلات ممكنة للتعليم، من خلال الحوار والمشاركة، اللذين تعززهما

وتغيرت حياتنا نتيجة تمكننا من الدخول إلى عالم الشبكة العنكبوتية في أي زمان ومكان، من خلال الحواسيب، والهواتف النقالة، وأجهزة اللعب،... وغيرها.

يتطرق الكتاب لخطابين شائعين ومتنافسين يحكمان النظريات المتعلقة بالطفولة والشباب: الأول يعتقد أن الأطفال ضعفاء، وفي خطر، وبحاجة إلى رعاية وحماية الكبار. أما الآخر، فيرى أن الأطفال والشباب يمتلكون القدرات والإمكانات، وأن على الكبار تمكينهم فقط.

وبينما تستقبل وجهة النظر الأولى الثورة الرقمية بخوف وقلق، تستقبلها الثانية بالترحاب والتشجيع، بوصفها أنها تقدم الإمكانات والإثارة.

ويتساءل الكتاب، كيف يمكن للمعلمين أن يستجيبوا لهذين الخطابين؟ وما الذي يتعين عليهم فعله في سبيل ذلك؟ وترى المؤلفة أن الخطابين لا يفيان بالغرض. وأن التحديات المحلية والعالمية والتغيرات المتسارعة التي نواجهها، تظهر لنا أننا بحاجة ماسة لتقييم طاقتنا الإبداعية بقدر كبير من التبصر.



من ورشة الفنون الخشبية في التعليم مع طلبة مشروع (عين عريك نظيفة).

على عملية السوق الشاملة للطفولة. فتطورها كان نتيجة ما أحدثه التلفزيون في طريقة نظر الناس إلى قدرتهم على الاختيار.

ومع انتشار الوسائط الرقمية وإمكانية استخدامها منذ الصغر في المنزل وخارجه، وازدياد إمكانية استعمال الأجهزة المحمولة، أصبح لدى الأطفال والشباب القدرة على أن ينموا في ذواتهم الحس بالهوية، والمعنى، والتوجه، وتطور مسار الحياة، من خلال «الانخراط مع الآخرين محلياً وعالمياً، واقعياً وافتراسياً. إن الأطفال والشباب، المزودين بأدوات البيئة الرقمية (التي تمنح غالباً حساً بالقدرة على التصرف أكبر مما يمنحه التواصل المباشر وجهاً لوجه)، يحظون بالدعم والتمكين أكثر بكثير مما حصل عليه أقرانهم قبل خمسين عاماً» (ص 37). فأحدثت الثورة الرقمية تأثراً جلياً في كل جوانب الحياة، فأجرت تحولاً في أسلوب عيشنا ونسج علاقتنا.

والتحدي الأكبر الذي يواجه التعليم، هو دمج الإمكانيات المتناقضة فيما بينها في تجربة واحدة، وهذا الأمر يمثل تحدياً للمعلمين؛ نظراً لمسؤولياتهم القانونية للحفاظ على الأطفال، وتمكينهم في آن. فمسؤولية حمايتهم تظل من واجبات الكبار، بمن فيهم العاملون في المدارس، فيما «يمثل التمكين والصوت الفعّال والتشارك في صياغة العالم تطلعاً وتجربة في آن معاً، لكثير من الشباب» (ص 51).

لذلك، لا بد من احترام حقوق الأطفال والشباب واحتياجاتهم، عبر الرعاية والحماية والتمكين في عالم يتصف بتغير اقتصادي واجتماعي وتكنولوجي سريع ومعقد، بل يتميز بتغير بيئي وروحي أيضاً.

التحدي يتمثل في الدّفع فيما سماه «هارجريفز» إعادة هندسة النظام، فكيف يستجيب المعلمون وكل مهتم بالتعليم لهذا المشهد المتغير بعيون مفتوحة على كلا الخطابين، الذي يرى الأطفال في خطر، والآخر الذي يطالب في تمكينه؟ وكيف لنا أن ننتقل مع الأطفال والشباب «في رحلة تحوّل تستدعي انخراط الجميع فيها، وتفضي إلى مستقبلات مثمرة، وملائمة، ومثيرة، وشاملة؟» (ص 52).

لا ريب أن خدمة التعليم تحتاج سواء أكانت موجهة لصف أم سنة دراسية، أم مدرسة... إلى المشاركة الفاعلة المبدعة في إنتاج مستقبلات مناسبة للذين يتعلمون في فيها.

وتأمل الباحثة أنا كرافت أن يسعى المعلمون من خلال مناقشة هذه المفاهيم المرتبطة بالطفولة والشباب، إلى إعمال الفكر في التغيير الذي حدث على الطفولة والشباب، وأن يقوموا بدور فاعل ونشط وتشاركي، إلى جانب الشباب، في مواصلة التغيير باستمرار، وأن يقيموا الحوار التفاعلي معهم.

لا شك أن الغد سيستمر في إدهاشنا، وتقع الدهشة عندما نكتشف أن ما يحدث غداً ليس مزيداً مما كنا عليه، ولا عملية تطور تدريجية له، «إنما هو ذلك النوع من التحول الذي يخترق خططنا وتوقعاتنا العقلانية الأكثر صلابة» (الكتاب، ص 25).

إن العديد من توقعاتنا الماضية لم تكن صائبة، مثل: فيروس الألفية، والمكاتب الرقمية... وغيرها، وكانت هناك تغيرات رئيسية لم نقدر على التنبؤ بها، كشبكة الإنترنت التي قادت إلى عالم اجتماعي واقتصادي مختلف تماماً. إن عالمنا المتخيم بالمفاجآت يفرض على المعلمين تحديات كثيرة، وعالم المفاجآت هو الذي قاد أنا كرافت لتأليف هذا الكتاب الثمين.

■ الطفولة والشباب في تغير دائم

«يمثل التمكين والصوت الفعّال والتشارك في صياغة العالم تطلعاً وتجربة، في آن معاً، لكثير من الشباب».
(الكتاب، ص 51)

شهد القرن العشرون ظهور الطفولة بوصفها موضوعاً يستحق الدراسة لذاتها، وهو تحول كبير عن رؤية الأطفال بوصفهم ملحقين بالعائلة وحسب، متلقين للحماية، ومادة أولية للتربية.

وكان لظهور التلفزيون دور كبير في إتاحة الفرصة للأطفال والشباب للانخراط في العالم الواسع بطرق جديدة، من خلال الاقتصاد المتغير، حيث ساهم الاقتصاد المعولم ووسائط الإعلام الجديدة في بناء الطفولة والشباب، وترافق ذلك مع التغيرات البيئية والإيكولوجية. واستفادوا من منافع سوقة الطفولة، وصارت نشاطاتهم تسهم في تطور السوق في اتجاهات معينة، نتيجة ديناميكية السوق الكبيرة. وكان للثورة الرقمية أثرها، وأضافت عناصر أقوى وأشد تأثيراً

■ مستقبلات الإبداع والتعلم: مفاهيم الإبداع المتغيرة

«والآن أصبح العالم الغربي ينظر إلى الإبداع بوصفه جانباً لا غنى عنه، وحيوياً، وذا قيمة عليا في حياتنا». (الكتاب، ص 55)

في بداية القرن الحالي، ازداد الاعتراف بضرورة أن يدرك الإبداع من خلال سياقه الثقافي. وأخذت الدراسات التجريبية التي تتناول موضوع الإبداع في الثقافات المختلفة، تتحدث عن سقوط أي مقولة تدعي وجود مفهوم كوني للإبداع. وبدأت التصورات السائدة حول الإبداع في التعليم وعلم النفس تدرك تدريجياً بوصفها إشكالية، كونها تتبنى وجهة النظر الغربية لمفهوم الفرد والنشاط الاجتماعي وتناقض الخبرات عبر الأجيال. وأقر المتخصصون بمساوئ التصور المعولم للإبداع في التعليم، ترافق ذلك مع تنامي جهد على المستوى السياسي في أجزاء عديدة من العالم للتأكيد على «إيجاد تصوّر للإبداع في التعليم يكون أكثر عالمية وأكثر قابلية للتعميم. وكان أحد ملامح هذا التصور هو التركيز على أهمية العامل الاجتماعي» (ص 55). وشرع ينظر إلى الإبداع بوصفه عملاً مشتركاً متشابك الأطراف، وليس عملية أحادية.

وفي نهاية القرن العشرين، تم الاعتراف بالإبداع بوصفه عملية واسعة، تشمل جميع مناحي الحياة، ووثيقة الارتباط بسياقات وحقول معرفية وإنجازات في مجالات العلم والتكنولوجيا وبكل ما له علاقة بحياتنا اليومية. وصار ينظر إلى الإبداع على أنه يتحدد ثقافياً واجتماعياً بناءً على النتائج المترتبة على أسلوب قياسه. والآن أصبح العالم الغربي ينظر إلى الإبداع بوصفه جانباً لا غنى عنه، وحيوياً، وذا قيمة عليا في حياتنا.

صعود الإبداع في التعليم

تتحدث الكاتبة عن مجموعة من الدوافع التي أدت إلى صعود الإبداع إلى رأس الأوليات، وتركز على الدوافع الاقتصادية والاجتماعية والتكنولوجية التي ترتبط بدورها بدوافع بيئية وروحية.

استجابة التعليم

استجابة التعليم حول العالم لهذه الدوافع الثلاثة في التغيير

الاقتصادي والاجتماعي والتكنولوجي، انعكست على التشديد على الجانب الإبداعي في المناهج الدراسية منذ نهاية القرن الماضي، وبدأت حكومات دول كثيرة تدرك دور الإبداع وأهميته التي لا غنى عنها في التعليم.

■ مستقبلات التعليم

«ويركز الخطاب حول مستقبلات التعليم المحتملة على مبدأ الإنجاز الأعلى، الذي يتطلب إعداد متعلمين ناجحين وأصحاب مبادرات جريئة في المجال الاقتصادي، ومواطنين لديهم حس بالمسؤولية واهتماماً بالصحة، والأهم ضرورة إنتاج مفكرين مبدعين ونقديين». (الكتاب، ص 71)

تتناول الكاتبة مستقبلات التعليم المحتملة والممكنة والمحذرة في كتابها، وتقول إن التفكير في المستقبلات المحتملة في التعليم تقودنا إلى التركيز على التحولات المتسارعة على المستوى العالمي، من منظور النبوء، ومن التحولات التي يمكن رصدها تنامي اللابقيئية، والتغيير، والتنوع الثقافي، والتحديات البيئية المتزايدة، والنمو السكاني، والتفاعل الرقمي... وغيرها. وهذه المستقبلات المحتملة التي تواجه التعليم، تستلزم أن يستجيب لها التعليم على صعد محتملة، وكذلك «الحاجة إلى الانخراط وتلاحم مجتمعي أكبر، واهتمام بالصحة، والتفات إلى مسألة الهوية والتشارك على عدد من المستويات» (ص 69).

ويركز الخطاب حول مستقبلات التعليم المحتملة على مبدأ الإنجاز الأعلى، الذي يتطلب إعداد متعلمين ناجحين وأصحاب مبادرات جريئة في المجال الاقتصادي، ومواطنين لديهم حس بالمسؤولية واهتمام بالصحة، والأهم ضرورة إنتاج مفكرين مبدعين ونقديين. وهذه المستقبلات المحتملة مترافقة مع نضال إنساني عالمي من أجل العثور على استجابات عبر وسائل تتصف بالمرونة وسرعة الاستجابة والاستباقية في المبدأ والعمل.

مستقبلات التعليم المنشودة

والتركيز عليها يأخذنا إلى منطقة أقل تنبؤية وأكثر تحراً من القيم النقدية التي تؤدي ضمن الحوار النقدي الأخلاقي إلى مقترحات لمستقبلات بديلة. وهذه المستقبلات المحذرة تحدد مجموعة من القيم، ونظراً للصعوبات التي نواجهها في

بالتفصيل في الفصول الأربعة التالية.

■ التعداديات

«يتعلم العديد من أفراد جيل الإنترنت من خلال التعاون مع المعلمين ومع بعضهم بعضاً، على حد سواء، وهم سيستجيبون جيداً لنموذج التعليم الحديث الآخذ في الصعود والقائم على التركيز على الطالب وعلى تعددية المسارات والتعاون والتكيف حسب الحاجة». (تابسكوت، الكتاب، ص 101)

إن انتشار تكنولوجيا المعلومات والاتصال وطبيعتها النافذة، أدى إلى انتشار التواصل الرقمي في حياة الصغار والشباب، الذي ولد لديهم إحساساً قوياً بفاعليتهم كأفراد لم يكن موجوداً قبل ذلك. وخطط التعليم ومناهجه بحاجة للإقرار بهذا الأمر، وأن تعمل به.

وإلى جانب الإحساس بالفاعلية، هناك طبيعة الطفولة والشباب التعددية. تتناول الكتابة في هذا الفصل جوانب التعددية في حياة الأطفال والشباب، فيما يتصل في الأماكن التي يتعلمون ويلعبون فيها، والناس الذين يتواصلون معهم والنشاطات التي ينخرطون فيها، والقراءات التي يجيدون التعامل معها، وما يختبرونه من فرص اللعب والتعلم والتفاعل الاجتماعي. «إنّ ما يدعم وجوه التعددية المتنوعة هذه عند الأطفال والشباب ويعززها -ولا يرتبط بها بالضرورة ارتباطاً حصرياً- هو عصر الألعاب الرقمية، والتشبيك الاجتماعي والإلكتروني، وإنتاج المواقع والصفحات عبر الإنترنت» (ص 80).

إن إتاحة الأدوات الرقمية والفرص التي تقدّمها لا حدود لها، ولهذا تبعاته على أصعدة عدة. فالتعددية المتاحة من خلال الفضاء الرقمي لها إشكالية أخلاقية مهمة فيما يتصل بالخصوصية، وعلى من تقع مسؤولية المراقبة والتحكم. وتتساءل المؤلفة حول ما إذا كانت البيئة الافتراضية توسّع مساحة التحكم لدى الأطفال أم أنها تقلل منها؟

واللغز المحير المطروح أمام التربويين، هو كيف يمكن لهم أن يتفاعلوا بالشكل الملائم مع الأطفال؟ ويعبر «تابسكوت» عن هذه النقطة بما يلي: إن الأساليب التدريسية المتبعة حالياً تتمحور حول المعلم، وتتصف بـ«معياري واحد وقالب واحد، وهذا يؤدي إلى جعل المتعلم معزولاً في العملية التعليمية،

الإمكانات المتوفرة في هذا القرن، وعدا عن الوقت الضائع في مسافة الانتقال من التخطيط إلى الممارسة، فالكتابة تقترح استكشاف المستقبلات الممكنة، لأن ذلك أجدى.

■ مستقبلات التعليم الممكنة

«إن أسئلة «الإمكانية الواسعة» حول مستقبلات التعليم تتعلق بمجموعة من القضايا، من بينها سؤال ما الذي يعنيه أن تكون متعلماً؟ وكيف؟ ... وسؤال ما الذي تعنيه المحصلة المعرفية عند الحديث عن قدرات المتعلم؟». (الكتاب، ص 72-73)

إن التركيز على المستقبلات الممكنة التي تواجه التعليم، يأخذنا إلى عالم الخيال الخصب، من خلال تأمل الإمكانات المبدعة والمرنة، ومن هذه النقطة يبدأ الربط بين الإبداع ومستقبلات التعليم.

يمكن أن يرى التفكير في مستقبلات التعليم الممكنة كنوع من التساؤل حول «الممكن الواسع»، «وقد يستدعي طيفاً من الأبعاد المؤثرة في كل ما يقيم وينظر إليه بوصفه ضرورة في سياق التغير المحتمل المستمر والمتسارع» (ص 72). وبهذا، فإن مستقبلات التعليم الممكنة تبدو في انسجام في موقفاً مع المستقبلات المحتملة، فهي تفر بالحاجة إلى تحقيق إنجاز أكبر، والعمل على إعداد متعلمين مبدعين، وأصحاب مبادرات في الاقتصاد، ومواطنين لديهم شعور كبير بالمسؤولية، وتشجيع المفكرين والمبدعين، وغيرها من أمور.

وتتحقق مستقبلات التعليم من خلال القدرات التي تهبها المستجدات الرقمية والتكنولوجية، وجذب مواطنين ومتعلمين يملكون دوافع ذاتية للوصول إلى مستوى أعلى. «إن أسئلة «الإمكانية الواسعة» حول مستقبلات التعليم تتعلق بمجموعة من القضايا، من بينها سؤال ما الذي يعنيه أن تكون متعلماً؟ وكيف؟ ... وسؤال ما الذي تعنيه المحصلة المعرفية عند الحديث عن قدرات المتعلم؟» (ص 72-73).

وأسئلة أخرى منهجية ترتبط بالكيفية التي يمكن أن تطوّر بها هذه الأساليب التدريسية والقدرات تطويراً مناسباً. لقد حددت المؤلفة الملامح الأساسية للطفولة والشباب التي ساهمت الثورة الرقمية في تشكيلها وهي: تعددية الهويات، الوعي بالإمكانات، الانخراط المرح، المشاركة، وتناولتها

العامه، على المستوى الفردي أو الجماعي. نشأ تفكير الممكن في بدايته كمتصور...، ثم أصبح الموضوع الأساسي لدراسة بحثية من أربع مراحل...» (ص 103).

والصيغة الأبسط التي يقوم عليها تفكير الممكن، هي طرح سؤال: «ماذا لو»، بطرق متعددة، وهذا يمهد الطريق لعملية التحول من المعطى إلى الممكن، أي التحول من «ما هذا الشيء؟ وماذا يفعل؟»، إلى «ماذا يمكننا - ويمكنني أن أفعل به؟».

تفكير الممكن: مما هو كائن إلى ما يمكن أن يكون
من خصائص القرن الحالي التحول بأشكاله المختلفة مما هو كائن إلى ما يمكن أن يكون، والمتحقق من خلال البيئة الرقمية. ويوضح هذا الفصل مفهوم «تفكير الممكن»، ثم يتطرق إلى الكيفية التي يمكن تطبيقه بها بواسطة طرق متنوعة لفهم الطبيعة المتغيرة للأطفال والشباب. وتناقش آنا كرافت أيضا بعض التناقضات التي تنتج عن تعدد الإمكانيات.

و«اشتمل تفكير الممكن وميكانيكية التحول مما هو كائن إلى ما يمكن أن يكون، في البداية، على عملية طرح الأسئلة والتخيّل واللعب التوليقي... لقد بينّ عمل تجريبي مع أطفال بين 3 - 11 عاماً أنّ هؤلاء أكثر اعتماداً على التعبير الجسدي منه على اللفظي» (ص 104). وفي دراسة حول أطفال يعملون بإبداع في المدارس الابتدائية في بريطانيا، تبين أن تفكير الممكن ينطوي على التعرف على المشكلات، وتصنيفها، وتحديدتها، ثم حلها.

الإمكانيات المتعددة في الطفولة والشباب

كان للميزات الهائلة التي أعطاها البيئة الرقمية، أن طبعت شكل الطفولة والشباب بلمح أساسي، وهو قدرتهم على الفعل وإظهار الفاعلية. فالأنشطة الرقمية توفر وسائل متاحة للتعبير عن هذه الفاعلية، والقدرة على الإقدام على الفعل. فالأطفال والشباب يستطيعون الإقدام على الفعل آلياً من خلال النقر بالفأرة، سواء فيما يتصل بحياتهم الاجتماعية، أو في مجال اللعب التخيلي، أو ابتكار محتوى رقمي مثل تصميم بناية أو تحرير الصور ومقاطع الفيديو.

وهناك أبعاد أساسية ذات تأثير كبير في تفكير الممكن لدى الطفولة والشباب اليوم في الفضاء الافتراضي، وهي: «الإمكانيات الكامنة في طبيعة الخيارات وتعدديتها، والإمكانيات المتعلقة بتنوع الأشخاص الذين يمكن أن

«بينما يتعلم العديد من أفراد جيل الإنترنت من خلال التعاون مع المعلمين ومع بعضهم بعضاً على حد سواء، وهم سيستجيبون جيداً لنموذج التعليم الحديث الآخذ في الصعود والقائم على التركيز على الطالب، وعلى تعددية المسارات والتعاون والتكيف حسب الحاجة» (ص 101).

«تابسكوت» يحذر أن الشباب المنجذبون بقوة إلى التعليم المتعدّد - المشترك خارج أسوار المدرسة، يريدون أن يكون التعليم أيضاً هكذا في داخلها. ولهذا التحذير مصداقته، ولكن يمكن لنا أن نتساءل هنا، إذا كان ما يحذر منه «تابسكوت» نابعاً من النظرة التحكّمية أو مفرطة الحداثة للتعليم التي تفتقر إلى المرونة والتنوع والحساسية والملائمة الصائبة للحاجات، فالوصول إلى مستقبلات تعليم ممكنة لا يكون باتخاذ المواقف وحسب، بل أيضاً بإدراك التبعات الناتجة عنها.

الإمكانيات

«اشتمل تفكير الممكن وميكانيكية التحول مما هو كائن إلى ما يمكن أن يكون، في البداية، على عملية طرح الأسئلة والتخيّل واللعب التوليقي... لقد بينّ عمل تجريبي مع أطفال بين 3 - 11 عاماً، أنّ هؤلاء أكثر اعتماداً على التعبير الجسدي منه على اللفظي».

(الكتاب، ص 104)

من الخصائص المميزة للطفولة والشباب في القرن الحالي، تعدد الطرق التي تتوفر من خلالها الإمكانيات، وسهولة التحكم بها والتعامل معها، وبخاصة في ضوء البعد الافتراضي لحياة الأطفال. وفي الصفحات السابقة تم التطرق للأوجه العديدة للتعددية، التي أدى العيش في بيئة مرقمنة إلى تأصلها في التجربة الحياتية للأطفال والشباب، وهي تعددية المكان والناس والشخصية والنشاطات والقراءات. والقوة التي تقف خلف كل منها هي الإمكانيات المتعددة المتدفقة باستمرار في مجال التفاعلات بين التكنولوجيا والواقع الماديّ والخيال الجمعيّ الإنساني. «إنّ التحوّل المستمر «مما هو كائن إلى ما يمكن أن يكون»، وهو ما أطلقت عليه مصطلح «تفكير الممكن»، يمكن أن ينظر إليه بوصفه لب العملية الإبداعية، سواء في المجالات المتخصصة أو في جميع مناحي الحياة

ينخرطوا في الفضاء الافتراضي، وإمكانات «التعلم عبر الفعل والفعل عبر التعلم»، والإمكانات المتعددة في تطبيق الأفكار» (ص 115).

الإمكانات المتعددة وغرفة الصف المدرسية

بينت أنا كرافت أن البيئة الرقمية التي يمكن للأطفال والشباب أن يولّدوا فيها الأفكار ويختبروا الانتقال مما هو كائن إلى ما يمكن أن يكون، تتضمن خصائص متعددة، من بينها وجود طيف واسع من الخيارات، وشبكة كبيرة من المشاركين الذين تنتج برفقتهم الأفكار، ويتحقق معه التعلم من خلال الفعل والفعل عبر التعلم. وترى أن من شأن هذه الأمور أن تولّد إحساساً قوياً بالارتباط بالنشاط الذي ينخرطون فيه، وشعوراً عميقاً بمعناه، ما يؤدي إلى اندفاع كبير باتجاهه.

وتنتشر في جوانب حياة الأطفال والشباب بذور التخيل التي يحملها بين جنباته تفكير الممكن. والسؤال هو: كيف يمكن لهذا أن يجد انعكاساً له في غرفة الصف المدرسية؟

وتقول الكاتبة أن دراسة الممكن أعطت اهتماماً كبيراً على مرّ الزمن لسياق البيئة التعليمية الاجتماعي. وتفكير الممكن حاضر بقوة في خطاب السياسات والممارسات في إنجلترا، وهو خطاب يعطي للإبداع اهتماماً متزايداً «غير أن تطويره كمفهوم ناشئ في السياق الاجتماعي، يقدم طريقة للتفكير حول حصيلة المتعلم وحول أساليب التدريس. ومن الواضح أن قوة الإبداع متأصلة في بيئة التكنولوجيا الرقمية، ما يجعلنا نسلم بأن الأطفال والشباب يحدثون انتقالاً دائماً وذا معنى على المستوى الشخصي لهم، مما هو كائن إلى ما يمكن أن يكون» (ص 127)؛ سواء بتمثيل الشخص لذاته في شبكة تواصل اجتماعي، أو بانتقاء مسار ما ضمن لعبة الإنترنت، أو بكيفية ابتكار أفلام متحركة ...

وفي الفصل التالي، تواصل أنا كرافت استكشاف بعد آخر من أبعاد الطفولة والشباب في مطلع القرن العشرين، الذي يتجلى عبر الدمج بين النشاط الواقعي والافتراضي، ألا وهو المرح.



من إحدى ورش العمل ضمن مسار إحياء الدمى في التعليم.

■ المرح

«إنّ التحدي الأكبر أمام الكبار الذين يعملون مع الأطفال والشباب كمعلمين، هو استيعاب المرح والجد بوصفهما وجهين لعملة واحدة أكثر من كونهما عمليتين مختلفتين». (الكتاب، ص 155)

لقد تطرقت الكاتبة إلى اثنين من العناصر الأساسية المكونة للطفولة والشباب في مطلع القرن الحادي العشرين: التعدّيات، الإمكانيات. وهاتان الخاصيتان من خصائصهما؛ أي التأثير الفعال الناتج عن المزج بين تعددية فرص النشاطات والطاقة الكبيرة التي يمنحها الانخراط الفعال فيها، تتطلبان رؤية واضحة من قبل التربويين للكيفية التي يرون بها دورهم في حياة الأطفال والشباب، فالتربويون يحتاجون، «كناقلين للخبرات التعليمية، إلى بلورة رؤية واضحة لمهّمتهم تجاه الأطفال والشباب: هل تتمثل في حمايتهم من الأذى؟ أم، على النقيض من ذلك، تمكينهم كذوات فاعلة واستكشافية الآن وحين يكبرون؟» (ص 134).

■ الاستكشاف والمرح

«إنّ الأطفال يستكشفون بيئاتهم بفاعلية، ويقدرّون على بناء المعنى داخل السياق بدعم الكبار وتشجيعهم». (الكتاب، ص 136)

ينظر «ليفرز» إلى دافع الاستكشاف بوصفه أمراً جوهرياً عند الأطفال، ويرى أن التعلم عميق المستوى عند الأطفال يشير الفضول والتخيل والإبداع والتحكّم الذاتي والقدرات الاجتماعية واستكشاف الواقع ومهارات الاتصال، وأن كل ذلك يتطور في سياقات تعليمية تشجّع الانخراط العميق الذي يحركه دافع الاستكشاف، أو يسمّيه «الاستعداد للفضول»، الذي وصفه بأنّه: «موقف استكشافي يستدعيه الالتفات إلى التنوع الهائل للمصادر المحفّزة التي تشكل محيطنا والانفتاح عليها، ما يجعل الشخص في حضور دائم، وقادراً على الانخراط في النشاطات التي تتطلب درجة عالية من التركيز والانغماس» (ص 135).

والدافع الاستكشافي، وبالتالي اللعب، له قيمة كبيرة في نظريات التعلم الأوروبية كالتي صاغها «بستالوزي» و«فرويل» و«ملاجوزي»، والتي أكدت على أهمية

المقاربات الاستكشافية والتشاركية وبناء المعاني. وهناك مقاربة أخرى أوجدها باحثون آخرون في أمريكا الشمالية وروسيا، مثل «برونر» و«بياجيه» و«فيجوتسكي». وهذه المقاربات في التعلم والتعليم في غرفة الصف، وبخاصة مع الأطفال، تأثرت بالفرضية القائلة «إنّ الأطفال يستكشفون بيئاتهم بفاعلية، ويقدرّون على بناء المعنى داخل السياق بدعم الكبار وتشجيعهم. لذا، فإنّ توفير فرص التعلم التشاركي الفعّال الذي يمنح فيه القائمون على التعليم المرح إلى جانب الإشراف الدقيق والاستجابات المدروسة والتفاعل والتحفيز لصغار الأطفال» (ص 136)، أصبح قاعدة في مدارس أوروبا الغربية، التي تم تأسيسها على نظريات «بياجيه» و«برونر» و«فيجوتسكي» وآخرون. وتبنى مساحات التفاعل «البيّن-ذاتي» بين اللاعبين وفق هذا الأسلوب.

■ اللعب المتواصل

إن نزعة المرح آخذة في الصعود في حياة الطفولة والشباب، والجدران بين اللعب والعمل تذوب. ويرر مناصرو التعلم من خلال الألعاب الرقمية موقفهم بالإيجابيات الكثيرة للتعلم في الفضاءات المعتمدة على اللعب الرقمي، والانفتاح على قنوات متعددة للمعلومات، واكتساب مهارات استثنائية عبر القرائيات البصريّة، إنّ «التحدي الأكبر أمام الكبار الذين يعملون مع الأطفال والشباب كمعلمين، هو استيعاب المرح والجد بوصفهما وجهين لعملة واحدة، أكثر من كونهما عمليتين مختلفتين» (ص 155).

■ المشاركة

«إنّ فضاءات المرح والتشبيك الاجتماعي وتوليد المحتوى التي يمضي فيها الأطفال والشباب وقتاً مهمّاً توفر فرصاً عديدة لتخيل الإمكانيات من خلال التفكير المبني على «ماذا لو»، و«كأن»، وللانخراط في تعددية من الناس والأماكن والنشاطات، والهويات، والقرائيات». (الكتاب، ص 169)

تناول آنا كرافت في هذا الفصل الخاصية الرابعة التي قد تكون الأكثر نفاذاً من بينها، ألا وهي المشاركة.

■ المشاركة بوصفها اختراقاً

حددت الكاتبة مضامين التعددية والإمكانيات والمرح الكامنة

في حياة الأطفال، وتقول إن ما يتخلل ذلك كله هو خاصية المشاركة العالية داخل حياة الأطفال والشباب الافتراضية والواقعية على حد سواء، وما يميزها أنها تتحقق في الفضاءات الاجتماعية والاقتصادية، فوصول سوق المنتجات الرقمية إلى المنازل وحقائب الأطفال والشباب، يهبهم انفتاحاً قوياً على بعضهم البعض من خلال الفضاءات الرقمية التي تطور بسرعة كبيرة مجالات التشبيك الاجتماعي وتنفيذ الأفكار واللعب.

وعبر الفضاءات الرقمية يتشارك الأعضاء في الألعاب والأصدقاء، وفي تنفيذ فكرة ما... التي هي مساحات اجتماعية واقتصادية في الوقت نفسه. والتواصل من خلال اللعب والانخراط في الشبكات الاجتماعية يحتاج نوعاً من تسجيل الدخول، أو رخصة لتحميل البرمجيات، أو الدخول إلى مواقع تحتوي على بعض الإعلانات. لذلك، فالأطفال منخرطون بفاعلية في السوق الرقمية، وتتحقق مشاركتهم وفقاً لهذه الخلفية المسوقنة.

المشاركة المرححة ضمن إمكانات متعددة

عندما نضم المشاركة إلى الخصائص الأخرى: التعددية، الإمكانات، المرح، بإمكاننا أن نرى أن إتاحة البعد الرقمي وكنية حضوره وطبيعته الشخصية تعني أن حياة الأطفال والشباب أصبحت مليئة بالفرص للمشاركة. «إن فضاءات المرح والتشبيك الاجتماعي وتوليد المحتوى التي يمضي فيها الأطفال والشباب وقتاً مهماً توفر فرصاً عديدة لتخيل الإمكانات من خلال التفكير المبني على «ماذا لو»، و«كأن»، وللانخراط في تعددية من الناس والأماكن والنشاطات، والهويات، والقرائيات» (ص 169).

في هذا الفصل أوضحت المؤلفة أن المشاركة ترتفع في هذه الفضاءات، لأن الخيال يتحقق بالحياة فيها، والناس تنجذب لفرص اللعب، وأصوات الأطفال والشباب تسمع بين بعضهم بعضاً، وبين الآخرين من خلال طرق متعددة.

ولا شك أن خصائص الطفولة والشباب الأربع توفر بوصلة للإبحار في بحر التعليم المضطرب والمضطرب.

القرائية والوسائط الموسّعة

تعميق القرائية ووسائطها

شرع الدارسون لتطور الاتصال الرقمي بتعريف عالم جديد كلياً من القرائيات التي تتصف بتعددتها وتنوع صيغها،

وهذا يتطلب إستراتيجيات ومهارات جديدة تتيح مستويات عالية من المشاركة الفردية والاقتصادية والمدنية التي تتغير باستمرار لأن التكنولوجيا الجديدة تحل محل القديمة وتبعدها عن دائرة الاستعمال.

يركز الباحثون على «القرائية البصرية» وعلى مدى تأثيرها على تغيير مفهوم القرائية عموماً. ويشير كرس إلى أن «القرائية الجديدة» تتغير بانتظام وبصور مختلفة، ويناقش هذا التغيير فيما يتعلق بالتعلم والتعليم والإبداع. «ويتطرق لعنصر مهم في هذه الفضاءات الجديدة، ألا وهو ديمقراطية «صوت المؤلف» من خلال ما توفره الوسائط التكنولوجية» (ص 189).

■ القرائيات الجديدة

«لا تتيح الشاشة الرقمية للمستخدمين القراءة والتأمل وحسب، وإنما تمكنهم كذلك من بناء ما «يقرأونه» وإعادة تشكيله، وبالتالي تحضر كبعد حيوي في اللحظة والمكان الآتين».

(الكتاب، ص 190)

تتغير الأساليب التي يتفاعل فيها الأطفال والشباب مع عالمهم باستمرار. وتشير المؤلفة إلى دراسة قام بها لنهارت وآخرون، الذين قاموا بدراسة عن المراهقين في أمريكا، ونهوا من خلالها إلى الدور الكبير «لعملية التأليف وتوليد المحتوى بين الأطفال من الفئة العمرية 12-17، حيث تبين أن 64% ممن شملتهم الدراسة يمارسون التدوين وإدراج الصور عبر الإنترنت. وقد شمل ابتكار المحتوى حوارات حول الصور والنصوص المحملة مع ملاحظة أن الفتيات أكثر ميلاً إلى تحميل الصور الثابتة من الأولاد الذين يميلون أكثر إلى تحميل مواد الفيديو» (ص 189)، ولوحظ من خلال الدراسة أن لا علاقة بين حجم الدخول إلى الإنترنت واستخدامه، وبين الطبقة الاجتماعية والنوع.

ويذهب «تابسكوت» إلى أن «الأطفال والشباب من «جيل الإنترنت» يشتركون جميعهم في أنهم طُوروا في أنفسهم حساسية خاصة في استخدام الرؤية الطرفية¹ لم تعهدها الأجيال السابقة» (ص 189). فجيل الإنترنت لا يشرعون بالقراءة من أعلى يسار الصفحة، إنما يمسحون بصرهم كمية متنوعة من المعلومات المعروضة أمامهم على الشاشة في صور مختلفة.

■ التشارك في صناعة مستقبلات التعليم المشاركة والإمكانات: الاصطدام بمعضلة الانخراط

«يقول كلاكستون إن التحدي الكبير الذي يواجهه كثير من التربويين يتعلق بمدى رؤية الطلاب للمدرسة على أنها ذات علاقة بحياتهم، ومدى قدرة التعليم على التغلب على التصور الذي يتبناه كثير من الشباب حول التناظر القائم بين حياتهم خارج المدرسة وحياتهم داخلها». (الكتاب، ص 220)

في هذا الكتاب حاججت أنا كرافت وجهة النظر القائلة «إنّ البيئة الرقمية التي يزداد حضورها إلى جانب التجربة المعاشة واقعاً، هي تخريب خطير لا يمتّ للتعليم بصله، بل ويدفعه

أما «فيشر»، فيصف أسلوب القراءة هذا بأنه وصول عشوائي للمعلومات على الشاشة، فالأطفال والشباب لا يلتقطون التفاصيل التي تتضمنها النصوص المكثفة. ولا تتيح الشاشة الرقمية للمستخدمين القراءة والتأمل وحسب، «وإنما تمكنهم كذلك من بناء ما «يقرأونه» وإعادة تشكيله، وبالتالي تحضر كبعد حيوي في اللحظة والمكان الآتيين» (ص 190).

فوجود مصادر بيانات متعددة على الصفحة، أتاح عرض صور قوية التأثير ثابتة كانت أو متحركة، متعددة الألوان أو أحادية اللون، تتضمن سرداً متعدد الطبقات وغير متسلسل زمنياً متاحاً على أكثر من مستوى، بما يمكننا من قراءته على أي ترتيب وبسرعة عرض كبيرة، والأكثر أهمية هنا، هو حضور صوت الكاتب وتفاعل الجمهور معه على نحو غير مسبق.



2011/12/29 فتاة تحضر صفها في مدرسة الفخيد، مسافر يطا. (عدسة الفنان: إدواردو سوتيرس خليل)

إلى الخلف» (ص 219). وأوضحت أن الأمر هو النقيض، فالخصائص الأربع التي تجلبها الوسائط الرقمية لحياة الأطفال والشباب لها تأثيرها الشديد، وتعمق مفهومنا لكيفية التفاعل والتعلم في القرن الحادي، والخصائص هي: التعددية، الإمكانات، المرح، المشاركة.

إن القوة العظيمة التي تعطيها التكنولوجيا تحمل في ثناياها تصورات حول الطفولة تركز على ما يقدر الأطفال والشباب أن يفعلوه، لا على ما يجب حمايتهم منه. وتشير الكتابة إلى أن حماية الأطفال من المخاطر هي مسؤولية المجتمع في الأساس، وبالتالي على التربويين، إلا أنها يجب أن تنضوي تحت الخطاب الذي ينادي بتمكين الطفولة.

وبتبنى وجهة النظر القائمة على تمكين الطفولة، يجد المدرسون أنفسهم أمام متطلبات متناقضة. ففي سياق يسمح للأطفال والشباب الولوج إلى تجربة مرحة وتعددية من خلال الوسائط الرقمية، أصبح من الجوهري أن يعمل المدرسون على تمكين مشاركة عالية ومستدامة ومستوى رفيع من تفكير الممكن في غرفة الصف. وبات من الضروري إعادة التفكير ببعض السياسات، كسياسة تهميش تجربة الأطفال مع الإنترنت، ومراجعة التصورات حول التعليم التي تهدف إلى حماية الأطفال والشباب وحسب، لا لتمكين إحساسهم بالمسؤولية.

تؤكد الكتابة على ضرورة تعزيز المشاركة المرتفعة والإمكانات العالية، لأن المشاركة المرتفعة وتفكير الممكن يساعداً على انخراط الأطفال الفاعل. وهذا التوجه يدرك على نحو أوضح ما يمكن للأطفال والشباب أن يقوموا به خارج غرفة الصف.

وابتكار فرص تعلم ضمن مشاركة كبيرة ومستوى عال من تفكير الممكن يعطي مؤشراً على أن التعلم مصاغ صياغة أمثل لتقوية قدرات المعلمين.

فبالأسلوب التربوي الذي يدعم المشاركة المرتفعة، ويرفع سقف الإمكانات، يحفز المعلم على الانخراط ويكافئه، فهذا الأسلوب يفترض أن الانخراط في التعلم عملية مرنة وقابلة للتشكيل، ويمكن التأثير فيها. وهذا يعني كما يقول كلاكتون «أن التحدي الكبير الذي يواجهه كثير من التربويين يتعلق بمدى رؤية الطلاب للمدرسة على أنها ذات

علاقة بحياتهم، ومدى قدرة التعليم على التغلب على التصور الذي يتبناه كثير من الشباب حول التنافر القائم بين حياتهم خارج المدرسة وحياتهم داخلها» (ص 220)، فعملية تطوير الطلاب تحتاج أكثر من مجرد امتلاك النوايا الحسنة.

■ الخاتمة

في النهاية تخرج المؤلفة باستنتاجاتها، التي تتضمن أن الأدوات الجديدة تجلب معها قرائيات جديدة. والتعليم يحتاج أن يعدّ الطلاب لامتلاك الطلاقة في التعامل مع الطيف الواسع من القرائيات التي يحبذ الأطفال والشباب الانخراط فيها. وإننا نحتاج لامتلاك وعي أفضل بالفجوات الممكنة، ليس بين المستوى التكنولوجي المنخفض للمدارس والمعايير المرتفعة التي تحتاجها عملية التواصل والانخراط، بل أيضاً بين محدودية التواصل المباشر وجهاً لوجه في الغرف الصفية، وما تقدمه التكنولوجيا من إمكانات إبداعية عالية.

وترى أننا كرافت أن التحدي الأكبر هو في العثور على طرق لتطوير تعليم مبدع بصورة حكيمة، «والحفاظ على وعي ثاقب بمن يمتلك هذا التعليم المبدع والحكيم، ومن يستفيد منه، وما هي قيمته الكبرى» (ص 252).

فمستقبلات التعليم المبدعة تقوم على الانخراط في التعددية والإمكانات والمرح والمشاركة التي تخترق حياة الأطفال والشباب. وأن الأمر يرجع لنا كمواطنين عالميين في العمل الدؤوب معاً عندما نحتاج حلولاً جديدة ومبتكرة للتحديات الجديدة، وأن نحدد الأدوار المنوطة بنا في مشهد حيواتنا المتشابكة الذي لا يكف عن التغيير.

لا ريب أن الكتاب يتضمن ما هو ثمين وقيم للقارئ، وسيجد فيه المشتغلون في التربية والتعليم كل ما يحتاجونه لتطوير قدرات الأطفال والشباب وإمكاناتهم، من خلال العملية التربوية التي انفتحت على أفق واسع لا تحده حدود.

باحث يقيم في رام الله

الهوامش:

¹ الرؤية الطرفية هي: آلية بصر تمكن الإنسان - حين يستخدمها في القراءة - من تثبيت العين على أكثر من كلمة واحدة في وقت واحد.